

## غزة والإنفجار السكاني



12 يونيو 2020 - 08:34

ناجي صادق شراب

قبل الولوج إلى تحدى المشكلة السكانية في غزة اشير كيف ان هذا المشكلة هي الأكبر التي تواجه العالم ومنظماته الدولية ، وهنا أذكر بالرسالة التي بعث بها خمسة عشر ألف عالم فى مختلف مجالات العلوم الطبيعية إلى مؤتمر الأمم المتحدة الذى عقد في برلين عام 2017 أشاروا فيها على القلق الكبير من تزايد عدد سكان العالم ، ويحذرون من التكاثر السكاني ، وأن الإنتقال من الطاقة الملوثة إلى الطاقة الخضراء يحتاج إلى نمو سكاني مضبوط حسب الإحتياجات الإقتصادية ، وتنامى المطالب المادية المتنامية ، وحسب قدرة الموارد الطبيعية المتاحة لدول العالم لإستيعاب هذه الزيادة والإحتياجات. فبلغ سكان العالم في منتصف القرن العشرين مليارين نسمة وصل اليوم إلى ثمانية مليار نسمة والتوقع زيادة الرقم بشكل كبير في العقود القادمة. وهذه المشكلة تصاحبها نمو الإستهلاك الفردى والمشاكل المتعلقة بنقص المياه والطاقة ومشاكل المناخ، وتقلص الأرض الزراعية وزيادة نسب التلوث البيئي. هذه المقدمة الموجزة توضح لنا خطورة المشكلة عالميا وعلى مستوى دول ومنظمات لها الكثير من الإمكانيات والقدرات. والسؤال ماذا عن هذه المشكلة على مستوى غزة؟ أعتقد ان هذه هي المشكلة الحقيقية التي تفوق قدرات من يحكم ويفكر ان يحكم غزة. فبمقارنة العدد والمساحة تبدو لنا ان غزة قد تشكل صورة مصغرة للمشكلة السكانية العالمية . فالمشكلة في غزة ليست مشكلة حكم ، ولا سيطرة وهيمنة سياسيه فهذه كلها مرهونة بظروف سياسيه قابله للتغير. فاليوم عدد سكان القطاع يتجاوزون المليونين النسمة يعيشون على مساحة كلية تبلغ 340 كيلو متر مربع، ولو طرحنا ما هو مخصص للبناء والسكن والطرق والزراعة والمشاريع الصناعية على قلتها تبدو لنا جسامه وكابوس المشكلة في السنوات القادمة، فلنتخيل كم يعيش على مساحة الكيلو متر مربع، في بعض المناطق الرقم يتجاوز المائة الف ، ما يعنى ان غزة الأكثر كثافة سكانيا في العالم. وخطورة المشكلة تتضح لنا مع فقر الأرض ، فلا موارد طبيعية ، ولا مياه جوفيه، وزيادة نسب التلوث التي تتعدد مصادرها المعروفة وغير المعروفة. وهنا عدد من الملاحظات :الأولى قابلية العدد للزيادة بطريقة غير منضبطة ومحسوبه لأسباب تتعلق بزيادة حالات الزواج رغم الفقر والبطالة الذى تعاني منه شريحة الشباب بشكل خاص، والإعتقاد الدينى ان تحديد النسل حرام، وأن الطفل يأتي ورزقه معاه. الملاحظة الثانية ان قطاع غزة يعتبر من اكثر المناطق في العالم إستهلاكاً، فالمجتمع الغزى مجتمع إستهلاكى ، وزيادة عدد السكان يعنى زيادة الطلب على الإستهلاك ، وفى الوقت ذاته وهذه الملاحظة الثالثة ضعف وتدنى وترجع القدرة على تلبية الإحتياجات الإستهلاكية لأسباب كثيرة منها ضعف الدخل بل وإنعدامه في الكثير من الحالات، ومن ناحية أخرى ضعف قدرة من يحكم على تحسين الأداء الإقتصادى وتنمية الموارد الطبيعية لزيادة القدرة على الإستجابة . والنتيجة الحتمية إتساع الفجوة بين الحاجة المتزايدة بحجم الزيادة السكانيه وإنخفاض سلم القدرة وهذا ما قد يعبر عنه بالإحباط واليأس والغربة وإنتشار أفكار العنف والتنظيمات المتشددة التي قد تستغل هذه الحالة للشباب لإستقطابهم في اعمال غير منتجة وزيادة حالات الإنتحار ومحاولات الإنتحار كما نرى في السنوات الأخيرة . والملاحظة الرابعة تحول المجتمع الغزى من مجتمع مدنى معتدل إلى مجتمع مغلق متشدد، وهو ما قد يقود في المدى

القريب إلى إنفجار سكاني داخلي يعبر عن نفسه في زيادة حالات الإنتحار والقتل والسرقة. الملاحظة الخامسة تقلص المساحة السكانية، وإنعدام المشاريع العملاقة لزيادة المساحة على حساب البحر فهذا يفوق القدرات المتاحة والخارجية ، ومن ناحية أخرى غلق الحدود المجاورة . الملاحظة السادسة: ولعل المفارقة الوحيدة التي يمكن أن تستوعب الحاجة للعماله ، ومن ثم تقلل من فرص الإنفجار الإفتتاح على إسرائيل بالمساهمة في عمليات البناء والزراعة فيها، وهذا يستوجب إعادة الإعتبار والنظر في ماهية العلاقة مع إسرائيل، والملاحظة السابعة التي قد تدفع وتسرع الإنفجار الإستثمار في إمتلاك السلاح بأى ثمن ، وعلى أهمية القوة العسكرية فأنا أتحدث عن الإنفلاق الذى يأتي على حساب تنمية البنية المدنية والإقتصادية ورفع القدرات الإستخراجية للقطاع حتى يكون قادرا على تلبية الحاجات المتزايدة للسكان، وتقلل من فرص الإنفجار السكاني. والملاحظة الثامنة الطبيعة الجيوسياسية والطبوغرافية لغزه لا تجعل منها منطقة صالحة للعمل العسكى ، وتعدد الجماعات المالكة له مما يزيد من مخاطر الإقتتال الداخلي عند أي منعطف وتحول سياسى ، وهذا ما حدث فعلا بين حركة حماس وبعض هذه الجماعات المتشددة. فغزة منطقة ضيقة بدون عمق وليست طوليه، وتفتقر للمناطق الهضبية والجبلية ، وهى منطقة منخفضة من السهل التحكم في كل منافذها. الملاحظة التاسعة ان خيار الحرب لا يعمل لصالح غزه، وهنا الإنفلاق العسكى الكبير قد ينهار ويدمر في حرب واحده وهذا ما تريده وتعمل عليه إسرائيل، وهو نفس النموذج الذى لجأت إليه الولايات المتحدة مع الإتحاد السوفيتى الذى أثقله الإنفلاق العسكى. والملاحظة العاشرة والأخيره ان مشكلة غزه في الإفتقار للرؤية التنموية الشامله، والتركيز فقط على الرؤية العسكرية. وهذا من شأنه ان يزيد من الأعباء السكانية ، ويقرب من درجة الإنفجار الداخلى. ناهيك ان القطاع بسكانه يعتمدون فقط على الرواتب والمنح والمعونات المالية التي تقدم والتي تهدف قط لتأخير عملية الإنفجار السكاني ، بل تحول سكانه لحالة من التبعية والإعالة. وكما هو معلوم ان قطاع غزه يعانى من نقص حاد في مشاريع البنية التحتية ، ومن مصادر الطاقة كالكهرباء والمياه، ويحتاج إلى الميارات من الدولارات ، وهو امر غير متاح وبعيد التحقق، وقد يتم بالقبول بصفقة القرن. وهذا أحد الإحتمالات المتوقعة . غزة ليست معادلة حكم، وليست معادلة مقاومه فقط. غزة رؤية سكانية ، ورؤية تنمويه ، ومن يريد ان يحكم غزه عليه أن يملك هذه الرؤية التنموية . ومن الخطأ التفكير في غزه من منظور انها حكم لجماعة واحده، ويربط مستقبلها للمراهنة السياسية على ما يمكن ان يحدث في الأقليم، ويعيد حكم الأخوان مثلا. ولو قارنا الوضع في الضفة الغربية وقطاع غزه سنجد الفجوة الكبيره بين المنطقتين، في كل المجالات، سواء من حيث مشاريع البنية التحتية ، وفرص العمل المتاحة لأكثر من مائة الف يعملون داخل إسرائيل. وفرص عمل افضل نسبيا، وإنفتاح وتواصل خارجى ملموس يخفف حالة الإختناق . عكس الوضع في غزة التي تعيش داخل صندوق مغلق مفاتيحه ليس بيد أصحابها.